

الإمبريالية السياحية

إخفاقات الحداثة الغربية في البلاد العربية

عادل الوشّاني^[*]

يركز هذا البحث على بيان أحد أبرز وجوه الاستراتيجيات الإمبريالية في ما يسمى مجتمعات الأطراف، وهو الكيفية التي تتعامل بها دول الغرب مع الاقتصاد السياحي لهذه المجتمعات. يسعى الباحث إلى جلاء الكثير من الغموض حول هذا الحقل الحيوي في الاقتصاد العالمي، وخصوصاً اقتصادات العالم العربي المتوسطي، ثم يصل إلى جملة استنتاجات مؤداها الإجمالي إخفاق الحداثة الغربية بصيغتها الاستعمارية في تطوير الأنظمة السياحية في البلاد العربية.

المحرر

استنبتت الدول الغربية القطاع السياحي في بعض البلدان النامية، ومنها البلدان العربية، وفرضته عليها كقطاع اقتصادي هيكلي مباشرة بعد حصولها على الاستقلال. أي أن القطاع السياحي في هذه الدول لم يكن قراراً سيادياً متمحوراً على مصالحها الوطنية وإنما كان استجابة خضوعية لإملاءات الغرب الرأسمالي.

إن هذه الفرضية لا تعوزنا المؤيدات لإثباتها، ففي سنة 1963 أقرت الأمم المتحدة أن السياحة يمكن أن تكون المدخل الحيوي الحقيقي للبناء الاقتصادي للدول النامية^[2]. ولقد نحا البنك الدولي

*- أستاذ جامعي وباحث في أنثروبولوجيا السياحة / تونس.

[2]- Lanfant, M.F.: Le tourisme dans le processus d'internationalisation. RISS. Vol XXXII, PARIS UNESCO, 1980, P15. Cit in: Aisner P. et Pluss C., La ruée vers le soleil, L'Harmattan, 1983, P186.

هذا المنحى، حيث جاء على لسان أحد خبراءه الاستراتيجيين (ميشال دافيس / Michel DAVIS) أن السياحة تمثل بالنسبة للدول النامية المحرك الحقيقي للتنمية، تماما كما كانت الصناعة هي المحرك الفعلي للاقتصاد الأوروبي في القرن التاسع عشر^[1]. وفي المؤتمر الدولي حول السياحة الذي نظمتها المنظمة الدولية للسياحة في مانينا سنة 1980، تم التأكيد أن السياحة من شأنها أن تؤسس لنظام اقتصادي دولي جديد تجسر فيه الفجوة الاقتصادية بين الدول المتقدمة والدول النامية حيث يتاح لهذه الأخيرة، من خلال الاقتصاد السياحي، أن تحقق نموا اقتصاديا متسارعا^[2].

إن إملاء الدول الرأسمالية والمنظمات الدولية التي تدور في ركابها على العديد من الدول النامية ومنها بعض البلدان العربية اعتماد القطاع السياحي كقطاع هيكلية، سيخضع هذا القطاع للمنطق الهيميني لهذه الدول ولهذه المنظمات. والحقيقة أن الغرب الرأسمالي قد أملى بوضوح أن تكون السياحة في الدول النامية على أساس الاستجابة الخضوعية لطلباته وانتظاراته.

يقول السيد روبر لوناتا (Robert LONATI) (أحد الأمناء العاميين السابقين للمنظمة العالمية للسياحة): «يجب قبل كل شيء قياس حاجيات السوق ودوافع ورغبات الحرفاء ومن ثمة إعداد عروض ومنتجات سياحية تستجيب لهذه الحاجيات وتلبي هذه الرغبات^[3]».

إنّ الغرب الرأسمالي حينما يملئ على الدول النامية، ومنها الدول العربية، أن تخضع بنيتها السياحية لمنطق طلباته فلائنه يُخضعها بذلك لشروط مصالحه الاقتصادية ولمنطق أفضلياته وتوازناته الربحية، أي ليربط اقتصادات هذه الدول به ويفرض تبعيتها له واتكالها عليه مما يولد تخلفا بنائيا في اقتصاد كل منها يشبه التخلف الناتج عن الاقتصاد الثنائي الذي ولده الاستعمار في هذه الدول^[4]. وهذا أمر معلوم، غير أن الأمر الجديد الذي نريد تجليلته في هذه الدراسة وتعميق فهمه هو أن الغرب الرأسمالي يريد أن يخضع هذه الدول لمنطق إشباع الحاجات النفسية لمواطنيه ورغباتهم والاستجابة لمختلف انتظاراتهم العاطفية وشواردهم الرغبية (FANTASME) بما فيها

[1]- Ntanyungu F. N'Duhirahe F.: *Tourisme et dépendance: le cas de l'Afrique noire, Itinéraires note et travaux*, N6, GENEVE, institut universitaire d'études du développement, 1981, P5. Cit in: Aisner P. et Pluss C., *La ruée vers le soleil*, op cit, P186.

[2]- Collectif: *Tourisme international et sociétés locales. Problèmes politiques et sociaux*, Paris, Documentation française, n 423, 1981, P9, cit in: Aisner P. et Pluss C.: *La ruée vers le soleil*, op cit, p186.

ورد في: عادل الوشاني: أساسات علمية للظاهرة السياحية: التاريخ والهوية والمناويل، دار نشر علاء الدين، صفاقس، تونس، 2016، ص 30.

[3]- Aisner P. et Pluss C.: *La ruée vers le soleil*, op cit, P198.

[4]- أبو بكر أحمد باقادر: سوسولوجيا السياحة، مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت، لبنان، عدد 89، 1997، ص 137.

الأكثر نزوية، والتنفيس عن مختلف مكبوتاتهم وتصعيد أزماتهم والعمل على تحقيق مختلف توازناتهم... بمعنى أنه مثلما جعل من هذه الدول مجالا حيويا لتصعيد أزماته الاقتصادية، جعل منها أيضا مجالا حيويا لتصعيد أزماته النفسية والاجتماعية والعلائقية والعاطفية والجنسية... ستوسع في معالجة هذه الأطروحة وذلك بمحاولة تبين واقع الأزمة في الاجتماع الغربي وكيف يتم تعريفها في المجتمعات العربية عبر السياحة.

1) أزمة المجتمع الغربي: من طموح الأنوار إلى الظلمة الجديدة:

دخلت أوروبا إلى العصور الحديثة مسلحة بالعقل وبالعلم، وكان الطموح أن العلم سيحقق الخلاص والحرية والرفاه، وأنّ العقل سييسد الإنسان، غير أنّ الحاصل هو أنّ العلم لم يتحول إلى أداة للمعرفة وتحقيق الرفاه وإنما أصبح أداة للبحث التطبيقي لتطوير أدوات إخضاع الإنسان اقتصاديا وعسكريا وإعلاميا... أما العقل فقد رجح القيم المادية على حساب القيم المعنوية، فتقيد الإنسان نفسه في مقابل سطوة رأس المال كسيد جديد، وتراجعت قيمة الإنسان، كما يقول إدغار موران (Edgar MORIN)، كصلة تضامن مع الآخر وقيمة مشاركة ومؤانسة له، في مقابل تطور قيم الفردانية حيث الإنسان الفرد الذي لا أهل له ولا أصدقاء ولا مسيح كما يقول لا برويار (LA BRUYERE).

لقد شخصت الأدبيات النقدية لمفكري الغرب نفسه ما يعتمل فيه من أزمة طالت كل أطره. هذه الأزمة، التي وسمها يورغن هابرماس (Jürgen HABERMAS) بالظلمة الجديدة، حولت الإنسان إلى فرد مستوعب ومغترّب الفكر ومستلب الوعي في واقع استلابي شامل يهيمن عليه الجهاز الاقتصادي الذي أغرق الإنسان في اللهو والملذات، وحوّله إلى مجموعة من الرغبات يحركها^[1] ويوجهها كيفما يشاء، استنادا إلى آلة دعائية ضخمة وفعّالة حاصرت الفرد وحكمته بقيود ذهنية وفوقية خارج نطاق الانتقاء الحر^[2].

في هذا الواقع الاستلابي، تباعدت المسافات النفسية الاجتماعية بين الناس حتى أضحي المجتمع الواحد أشبه بأرخبيل من الأشخاص المبعثرين، وغدت العلاقات الاجتماعية باردة ولا شخصية وتقوم على الحساب الدقيق والنفعية، وترسخت الفردية حتى صار الفرد مرجع ذاته ومقاول حياته الخاصة، فتوجهت كل اهتماماته وانتباهاته ورهاناته إلى أشياءه الخاصة يشبعها دون اكتراث

[1]- Eric Fromm: The sane society, Holt, Rinehart and Winston, New York, Eleventh Printing, 1962. P166.

[2]- علاء طاهر: مدرسة فرانكفورت من هوركهايمر إلى هابرماس. منشورات مركز الإنماء القومي، بيروت، ص 72، (بدون تاريخ).

بالآخرين أو التزام بهم، وصار الغوص في العالم الداخلي بحثا عن الأحاسيس الشاذة، والنزوات المتطرفة والشوارد الرغبية المتسببة هما وجوديا ملازما وجهدا موصولا لتجميع هوية شخصية مجزأة في بيئة ثقافية لم يعد فيها للفرد علاقات عاطفة أصيلة، وإنما فقط صلته بذاته ينصت لأهوائها وهواماتها وشهواتها، ويعرف من استجابته لها الشعور بوعي سيّد.

لقد تعاضمت، في هذه البيئة النفسية الاجتماعية، كما يقول جوناثان بوريت (Jonathan BORIT) مشاعر الاستياء، وتفاقت ظواهر الوحشة والوحدة والسأم والاكئاب والأوضاع الصحية السيكلوجية العليلة ...

أما في ميدان العمل، فقد أضحى الإنسان في المجتمع الصناعي الرأسمالي يعيش حالة من الانفصال (séparation) في كل أوجه نشاطاته الإنتاجية، فمُتعتة انفصلت عن عمله، وجهده انفصل عن عائلته، وإنسانيته فقدت قيمتها أمام أولوية الآلة ودورانها الإنتاجي المتواصل.

نحن بإزاء حالة من سلب الذات وتشبيئها^[1]، واغتراب عن العمل وعن ناتج العمل معا، وتحول إلى ذرة اقتصادية بلا قيمة في منوال اقتصادي يعامل الإنسان كرقم وكشيء.

لقد كانت الحداثة سمة خاصة بالحضارة الغربية، فهي المدخل إليها، إذ تدل على التقدم والتطور وشمولية العقلانية والثورة التكنولوجية، أما اليوم فهي تدل على عكس ذلك^[2]، إنها تحيل على خيبة الأمل الكاسحة، الأمر الذي دفع باللاوعي الجمعي (inconscient collectif)، كما حدده جورج دومازيل (Georges DUMÉZIL)^[3] إلى البحث عن حلول لإعادة التوازن الجمعي ولخفض التوتر ولإعادة الأمل.

إنّ السفر السياحي إلى المجتمعات العربية هو آلية من آليات إعادة الأمل وذلك من خلال فعل نفسي يحوّل هذا السفر إلى طقس من طقوس الانفتاح على الأسطوريّ والخياليّ والعوالم الشرقية الغرائبية^[4]. فالغرب، بعد أن اغتصب مُثُل الحداثة التي استند إليها عصر أنواره كما يقول ليوتار

[1]- هاربرت ماركوز: العقل والثورة، هيغل ونشأة النظرية الاجتماعية، ترجمة فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970، ص 95-96.

[2]- المصدر نفسه. نفس تاريخ الزيارة.

[3]- انظر:

Georges Dumézil, Mythe et épopée, Types épiques indo-européens, un héros, un sorcier, un roi, NRF, Gallimard, 4ème édition, 1984. Tome II.

[4]- سمير عزمي: الحداثة وأزمتهما، موقع الكتروني مجلة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، نشر بتاريخ 21 جانفي/يناير 2015، تاريخ الزيارة 25-4-2018.

(LYOTARD)^[1]، بدأ يبحث عن عوالم غرائبية وعن أساطير مرجعية حائرة في كل مكان^[2]، يُصعد فيها أزماته ويُخفّض فيها توتراته ويستجيب فيها لانتظاراته. كيف ذلك؟

سنجيب عن هذا السؤال من خلال دراسة أسماء بعض النُزل (الفنادق / Hotels) في جزيرة جربة (التونسية) مستفيدين في ذلك من مقاربة رولان بارط (Roland BARTHES) السيميولوجية ومقاربه حول الأسطورة، وأيضاً بالاستفادة من مقاربة بيرو (PERROT) حول الأسطورة المبرمجة (mythologie programmée)^[3].

جربة هي جزيرة تقع في الجنوب الشرقي التونسي، وتبلغ مساحتها 514 كلم² وهي تضم حوالي 120 نزلاً سياحياً مصنّفاً.

تحمل الكثير من هذه النزل في هذه الجزيرة أسماء الآلهة والملوك الأسطوريين كإيزيس ربة القمر والأمومة لدى المصريين القدماء، وتانيت الآلهة القرطاجية رمز الأمومة والخصب والنماء وازدهار الحياة، وأوزوريس إله البعث والحساب عند المصريين القدماء، وأوليس ملك أنطاكيا الأسطوري، وتيليماك الأمير بن أوليس، والملكة بينيلوب زوجة أوليس، وزيوس أبي الآلهة والبشر في الأسطورة الإفريقية، وهيليوس إله الشمس في الأسطورة اليونانية، ونيريد إله البحر في الأسطورة الإغريقية، وأكزولا (Oxola) إله الحياة والنقاء في الديانة الكوندومبولية (Candomble)، وهي ديانة إفريقية برازيلية، واسم النزل (Oxola house) أي دار الإله، وأثينا إله الحكمة الإغريقية، والإلياذة (Iliade)، وهي ملحمة شعرية أسطورية تحكي قصة حرب طروادة، وأوديسا (Odyssee)، وهي ملحمة شعرية أسطورية تحكي قصة حرب طروادة، وهوميروس (Homer)، وهو شاعرٌ ملحميٌّ إغريقيٌّ أسطوري يُعتقد أنه مؤلف الملحمتين الإغريقيتين الإلياذة والأوديسة... هذه الأسماء الأسطورية وغيرها ليست اعتباطية وإنما وراءها آلة إخبارية خبيرة في الإنصات للأحلام والانتظارات والشوارد الرغبة، وهي تهدف إلى الاستجابة إلى كل ذلك في الفعل الإخباري برمته بما في ذلك التسمية الإخبارية نفسها، كما تهدف إلى الإصابة حيث تجب الإصابة... إنها تصيب

[1]- Magazine littéraire, N° 225, 1985, p. 43.

[2]- Baudrillard, Jean, «La modernité», Encyclopédie Universalis, volume 11.

[3]- PERROT, Marie Dominique; Gilbert RIST et Fabrizio SABELLI (1992), La mythologie programmée: l'économie des croyances dans la société moderne, Paris : Presses Universitaires de France. Cit in Boualem Kadri et Djaouida Hamdani Kadri : Discours publicitaire et mythologie touristique: une analyse sémiologique des mythes du Club Med. Revue téoros .2012.

اللاوعي وتصطنع له أساطير يعوض فيها ويُصعد ويُحوّل ويُسقط... إنّ خبراء السياحة هنا، في الوقت الذي يعيدون فيه إنتاج الأساطير في تسمية النزل لأغراض تسويقية تجارية، يثبتون فرضية ميرسيا إلياد (Mircea ELIADE) القائلة باستمرار الأساطير القديمة في المخيال العام لمجتمعاتنا الحديثة^[1].

إن السؤال الرئيس هنا هو: ما هو أثر هذه الأسماء الإشهارية الأسطورية في لاوعي المتقبل، السائح الغربي ووعيه، بمعنى آخر، ما هي الدلالات التي يتلقاها المتقبل السائح من هذه الأسماء الأسطورية للنزل؟

في الحقيقة، لقد أتاحت لنا المعالجة السيميولوجية أن نقف على دلالات عديدة ومختلفة لهذه الأسماء، سنكتفي في هذه المعالجة بأربع دلالات نعرضها تباعاً مع التأكيد أنّ الأسطورة هي منظومة كلام أي منظومة من الصيغ الدلالية، وبالتالي فإنّ هذه الأسماء تبقى مفتوحة على الاستفهام السيميولوجي والتأويل. إنّها كالنص بنيته متغيرة من قارئ إلى آخر.

2) الدلالة الأولى: السياحة الغربية في البلدان العربية: سفر نكوصي إلى المرحلة البدائية للإنسانية.

إنّ تسمية النزل في جزيرة جربة بأسماء أسطورية من آلهة وملوك فيه إحالة إلى مرحلة زمنية بدائية حيث مستوى وعي الإنسان خيالي وإحيائي، وأسطوري وخرافي، وسحري وغيبّي... ولم يدر بعد اللوغوس والفكر المجرد والتجريبي والتفسيري... لقد كان الإنسان في الحقبة البدائية يواجه الطبيعة خائفاً منها ولكنه كان، في الوقت نفسه، مندمجاً بها. فهو بعضها وهي بعضه: كما كان يفسر الظواهر بها.

إنّنا هنا بصدد عمل إشهاري منهجي يفتح الخيال على حركة عكسية للتاريخ، ويغري بإمكانية السفر النكوصي إلى المرحلة الطبيعية، حيث طفولة الإنسانية الضائعة ووحشية هذه الإنسانية المستعادة كما حدد ملامحها العديد من مفكري الغرب، وإلى إنسان تلك المرحلة الذي خفّضته مثل هذه الأدبيات المحكومة بالإنثومركزية الغربية إلى مستوى الكائن التراثي. فهو ذلك البدائي «المتوحش الطيب» (Le bon sauvage) الذي لم تكتسحه الحضارة، كما تخفّض كل ثقافته

[1]- ELIADE, Mircea (1957) Mythes, Rêves et Mystères, Paris, Gallimard. p 310.

ومختلف إبداعاته المادية والرمزية إلى مستوى التراث الإنساني ما قبل التحضر^[1].

إنّ البنية العامة لهذا الإنسان التراثي أسطورية أي لا زالت هناك في الماضي ساكنة ولا تطويرية، وبالتالي فهي في إحياء من الإحياءات متحف حيّ من متاحف التاريخ البشري الذي لا بدّ من زيارته لفهم السيورة العامة للوجود البشري كيف كان وكيف أصبح... ولبناء المعرفة التاريخية استنادا إلى المعايضة الذاتية، وللاستمتاع الفرجوي، ولمعايشة تجارب وجودية خصوصية وثريّة بالحسّ المختلف...

إنّ هذه التسميات تُحجّم المجتمعات العربية إلى مستوى المجتمعات البدائية للفرجة وللتجربة الغرائبية القائمة على المخاطرة والمجازفة والاستكشاف النكوصي، أي استكشاف الماضي حينما كان بسيطا حضاريا، وبدائيا إنسانيا، وذلك من خلال مجتمعات لا تزال تعيش الماضي في الحاضر.

هذه المضامين البدائية العجائبية تُجسّس لدى السائح الغربي الوهم بإمكانية الهروب، ولو المؤقت، من ضغوطات نسق الحياة العصرية وإكراهاته، وتفتح له قوسا لرومانسية حالمة بإمكانية العيش في الماضي واقعا في أوج حسه، فهذه المجتمعات البدائية بتراثها الغرائبي هي الماضي بالنسبة للحضارة الغربية، وتكفي بضع ساعات على متن طائرة للسفر العكسي إلى هذا التراث حيث هذه الشعوب التراثية المتماهية مع الطبيعة.

يبدو واضحا أنّ هذه المضامين تُحجّم المجتمعات السياحية النامية ومنها المجتمعات العربية إلى مستوى «البدائين للعرض السياحي» (Des primitifs pour tourists)^[2]، لكنها في المقابل تثنم الغرب إلى مستوى الإنسان المستكشّف والمتحضر والمدني والذي يتصف بالتقدم والقوانين الوضعية والحركة المدنية والعقد الاجتماعي.

إنّنا بصدد صورة نمطية أي قالب جامد يتحكم في نظرة الغرب إلى العرب. والحقيقة أنّ سياقنا تاريخيا خصوصا سمح بتشكيل هذه الصورة النمطية وتبلورها.

فمنذ عصر الاكتشافات الجغرافية ومطلع عصر التنوير الأوروبي، كان الفكر الغربي يعيش في عالم

[1]- نحن نعلم أنّ بعض المفكرين الغربيين قد تجاوزوا هذه الأثنية المركزية الضيقة إلى قراءات أكثر موضوعية وإنصافا لغير الغربيين أمثال الأنتروبولوجي الفرنسي بيار كلاستر (Pierre CLASTRES) وتحاليله الجريئة في مجال الأنتروبولوجيا السياسية وأيضاً الأنتروبولوجي الفرنسي جورج بالاندييه (Georges BALANDIER).
أنظر:

- جورج بالاندييه: الأنتروبولوجيا السياسية، ترجمة علي المصري، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت، 2007.

- بيار كلاستر: مجتمع الادولة، ترجمة محمد حسين دكروب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1991.

[2]- Bugnicourt (J) et al: Touristes_ rois en Afrique, Dakar-Paris, Enda-Karthala, 1982, P120- 121.

لا تشاركه في صنعه الحضارات الأخرى... وبقدر ما كان هذا الفكر يتقدّم في البناء الحضاري، كان ذلك مصحوباً لديه بشعورين: أولهما الشعور بأن اكتمال البناء الحضاري من الناحية المادية لا يمكن أن يكون إلا ضمن علاقة هيمنة على العالم الآخر. أما الشعور الثاني فإنه يتعلّق بالوعي بالذات الذي تكوّن لدى الغرب، ومضمون هذا الوعي أنّ أوروبا هي مركز الحضارة والثقافة والعقل في التاريخ.

ضمن هذا الشعور بمركزية الذات، صوّر الاستشراق الآخر العربيّ على أنّه ينتمي إلى جنس آخر، وأنّ شخصيته القومية تشوبها عيوبٌ جسيمة كالكسل الفكري والعقم والخمول، أما حضارته فهي ضرب من ضروب الفلكلور وثقافته بربرية تسودها المبالغات^[1].

يبدو أننا بصدد إعادة إنتاج هذه الصورة النمطية التي تكاد لا تجانب في مضامينها القول الاستشراقيّ ذا النزعة المركزية الاستعمارية، فالإنسان لا يزال ذلك الكائن التراثيّ الغرائبيّ، والتاريخ لا يزال سكونياً لا تطورياً، والتراث لا يزال بنية متأبّدة لا ينفصل فيه الحاضر عن الماضي.

الاستشراق أغرى في الماضي بالاستعمار وحفّز عليه، وهذه الصّورة تغري اليوم بالسياحة وتحفّز عليها...^[2].

3) الدلالة الثانية: مغالبة الشيخوخة والتنعم المديد بالشباب.

إنّ الآلهة لا تهرم ولا تموت فشابها أزلي، بل وفي يدها مفاتيح الحياة والخصوبة ونضارة الشباب... (إيزيس وتانيت). إن تسمية النزل بأسماء الآلهة الخالدة ليس اعتباطياً وإنما يتوجه بشكل قصدي مباشر إلى شريحة واسعة من السّياح وهي شريحة المسنين وخاصة منهم المسنات. فهذه التسميات المبشرة بالقدرة على مغالبة الشيخوخة والتنعم المديد بالشباب تستجيب لانتظارات عدد ثقيل من السائحات المسنات، فترجّع كيانهن الأفل في التسمية نفسها، وتعدّ باستعادة روق الشباب وعنفوانه وميعته (Fleur de la jeunesse).

إنّ فنيّ الإشهار السياحي، بما هم خبراء في الأحلام والشوارد الرغبةية،^[3] يدركون جيداً احتياجات

[1]- علي شعيب: الاستشراق وكتابة التاريخ، الفكر العربي المعاصر، عدد 70-71، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1989، ص 59.
[2]- عادل الوشّاني: السياحة الدولية في البلاد العربية: حوار بين الثقافات أم مدخل آخر للهيمنة الغربية على البلاد العربية. مؤلّف جماعي بعنوان الممارسة الثقافية في مجتمع المعلومات والاتصال، منشورات المركز الوطني للاتصال الثقافي، تونس، 2005، ص 101-107.
[3]- إنّ الأشهار يشتغل على الرغبات المكبوتة وعلى التعويض كما يشتغل على صناعة الأحلام والاستجابة لها.
أنظر:

Fabienne Baidar, Marcel Burger et Dionysis Goutsos (dir), La communication touristique, Approches discursives de l'identité et de l'altérité, L'Harmattan, Paris, 2004.

جمهورهم وانتظاراته، حتى الساكن منها في اللاشعور، فيعملون على تحقيق هذه الانتظارات والرغبات والنزوات والشوارد الرغبة في كل العملية الإشهارية، مما يعدّ بإمكانية تحقيقها بالفعل.

إنّ تسمية النزول بأسماء الآلهة والملوك تعدّ بدنياميكية واسعة للفعل، كما تحيل إلى عنفوان الشباب وجيشانه وكل قيم الاحتكاك والحرارة والرفاهة العاطفية والحب المفرط والجنس العميق والإنفاق السخي... وهي قيم هجرت الميدان الاجتماعي الغربي الذي شهد حالة من التفتيت الذري والانفجار النووي الذي مسّ قلب حياته الاجتماعية^[1]... وإنّ أمكنةً أخرى وأقواساً زمنية نوعية أخرى مهياً لتحقيق هذه الانتظارات وإشباع هذه الاحتياجات التي لم يعدّ ممكناً حتى مجرد انتظاراتها في الحياة الاجتماعية العادية، دعك من الاستجابة لها وإشباعها. إنّ هذه الأمكنة الأخرى هي النزول مقر الآلهة المتحررة من إكراهات المكان، وإنّ الزمن الآخر هو الزمن السياحي الأسطوري المتحرر من إكراهات الزمان... وإنّك، كسائح مقيم في هذه البنية المكانية والزمانية، متعالٍ كآلهة ومتحرراً من إكراهات الإنسان.

إنّ المسنات، في المجتمعات الغربية، بما تمارسه هذه المجتمعات من عبادة الشباب ضمن ما يسميه رولان بارط بالعنصرية الشابة، ينزلن ببطء خارج الميدان الرمزي، وتتقلص علاقاتهن الاجتماعية العاطفية، وتتنازل يوماً بعد يوم قيمتهن الاجتماعية. إنهن يعشن حالة من التناقض الحاد والتدميري بين صورة الذات لديهن وبين صورتهن عند الآخرين، وهو ما يزعزع كيانهن. فهن بالنسبة إلى أنفسهن ذوات لها رغباتها وآمالها وطموحاتها أي لها مستقبلها، أما بالنسبة إلى الآخرين فهن ذوات بدون آفاق، تالفة وعديمة الفائدة، وليس لها سوى ماضيها. هذا التناقض الحاد بين الصورتين عبرت عنه «سيمون دي بوفوار» (Simone DE BEAUVOIR) بعمق منجرح بقولها «أنا أصبحت شخصاً آخر في حين أنني ما زلت أنا نفسي»^[2].

في هذا الواقع الكارب والملغي والمهمّش للمسنات، تفتح آلة الإشهار السياحي لهنّ إمكانية واقعية لتحقيق التماسك الذاتي وسط التدمير، وذلك بأن تُروّج معاني إشهارية تفيد أنّ هناك مجتمعات استقبال سياحي، ومنها المجتمعات العربية، تُنزلهن منزلة الملوك وذلك على قاعدة «الزبون هو الملك» (Customer is king / Le client est roi) الذي هو دائماً على حق، وتترنح عنهن صورتهنّ الموضوعية كمسنات وتصبغ عليهن صورة جديدة كسائحات. وصورة السائح

[1]- دافيد لو بروتون: أنثروبولوجيا الجسد والحداثة، ترجمة محمد عرب صاصيلا. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1993، ص 156.

[2]- Simone de Beauvoir, La vieillesse, Gallimard, Paris, 1970, P 130.

النمطية الغالبة في هذه الدول هي ذلك «البنك المتحرك» الذي ينفق ما فيه على ملذاته ومتعه الحسية، من هنا جاء الاتجاه القنصي للسياح^[1]، حيث يسعى عدد واسع من الشباب في هذه الدول للحصول على أكبر عائد مالي من أيّ مواجهة مع السياح وذلك بأن يقول لهم ما يريدون سماعه، وأنّ يحقق لهم بالكلمة كما بالفعل انتظاراتهم حتى الساكن منها في اللاشعور، ويستجيب لرغباتهم حتى التي بفعل تجاوزية الزمن أو محدودية الخلق أو تحديدية المجتمع ما عاد بإمكانهم تحقيقها.

إنّ هذه المعاني الإشهارية تعدّ السائحات المسنات وتبشّرنّ بوجود شبابي كامل، كالألهة، فتضمّر ما تضمّره، وتلمح ما تلمحه من اتصالات اجتماعية عاطفية رومانسية ممكنة... يمكن أن تتحقق في أطر مغايرة يتخلص فيها الإنسان من هويته الموضوعية ليتحصل على هوية خصوصية وهي الهوية السياحية وممكناتها المتعالية إلى مستوى الآلهة والتي تفصله عن الإنساني وكل القيود والحدود والإكراهات.

إنّ هذه المعاني تعيد بناء صورة الذات عند السائحات المسنات بما تؤكّد عليه من حضور متجاوز للحدود إلى إمكانية القيام بعمل رغائبي غرائزي على الجسد يعيد له الرونق واليفاعة في زمن ذبوله ويبسه وذهاب نصارته...

نتحدث عن المسنات وليس عن المسنين لأننا لا نهمل الملاحظة السوسولوجية التي يمكن تعميمها على أغلب المجتمعات وهي أنّ المرأة المسنة تفقد اجتماعيا الإغراء الذي كانت تدين به أساسا إلى نصارتها وحيويتها وشبابها، أما الرجل فيمكن أن يربح مع الزمن قوة إغراء متنامية لأنّ الثقافات السائدة ترفع لديه من قيمة الطاقة والتجربة والنضج، كما أنّ القيم السائدة تتحدث عن «إغراء الأصداغ الرمادية» وعن «الشيخ الجميل». أما المرأة فتعمدّ كما تقول سيمون دي بوفوار باسم «الجلد الهرم». إنّ الشيخوخة تدمغ بشكل غير متساوٍ في الحكم الاجتماعي المرأة والرجل^[2].

إننا هنا في سياق الطموح الحداثي حيث لا يجب الانهيار والاستسلام للجسد وتجاوز صرخة سيمون دي بوفوار في روايتها «المرأة المجربة» (La femme rompue)^[3]: «لقد استسلمت لجسدي» واعتناق المقولة الشهيرة الشائعة: «افعل ذلك» (Do it). ومضمون هذا الطموح أنه لكي

[1]- W.A. Sutton: Travel and understanding :Notes on the social structure of touring. INTJ. Comp. Social, 8(2), 1967, p23.

ورد في: أبو بكر أحمد باقادر: سوسولوجيا السياحة، الفكر العربي، العدد التاسع والثمانون، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1997، ص 140.
[2]- دافيد لوبروتون: أنثروبولوجيا الجسد والحدائة... مصدر مذكور سابقا، ص 147.

[3]- De Beauvoir, Simone: La femme rompue, Edité par Gallimard, 1973.

تقضي شيخوخة آمنة من كل تهديد، ولكي تطيل حياتك للحد الأقصى بأن تعثر ثانية على عمق حياتك وتستعيد تذوقك لوجودك... تناول هذه الفيتامينات وتلك الأملاح المعدنية وتلك الحبوب وهذه الأنواع من الأغذية وتلك الماكس إيبى (Max Epi) التي تحمي من الحوادث القلبية وهذه البيتاكاروتين التي تؤخر شيخوخة الخلايا^[1]، ومارس تلك الرياضة وتنفس بتلك الطريقة وافتح قوسين على حياة الآلهة تفتح لك فيها كل الممكنات وتمارس فيها كل ما تشاء بدون تحفظ اجتماعي ولا أحكام معيارية قيمة ولا سلطة زمن ولا تذوية للجسد... هذان القوسان هما رحلة سياحية حيث البيئة فردوسية استجابية إشباعية... لنشر هنا إلى أن أحد النزل في جزيرة جربة يُسمى جربة الفردوس (Jerba Paradise).

هذا الإغراء بانفتاح كل الممكنات ليس مجازاً، ذلك أن علاقات منكحية حقيقية تتكوّن بين الشباب المرتاد للنزل والعاملين فيها وعلى هامشها وبين السائحات المسنات الباحثات عن التعويض.

إن هؤلاء الشباب يَشدون، من وراء كل اتصالية ممكنة ومتاحة مع السائحات، وخاصة المسنات، الحصول على الجنس والمال والعطايا وحتى الزواج المختلط المُخوّل للهجرة إلى أوروبا، أي يبحثون عن حلول فردية لمغالبة الكبت الجنسي والتهميش الاقتصادي. أما تلك المسنات فإنهن يشدن الحب والجنس عند آخر سهلٍ ومطواع يغالبن به الإقصاء الاجتماعي والعاطفي.

ويتحقق التبادل ولكنه تبادل غير متكافئ، فما يجنيه هؤلاء الشباب هو عينه ما تخسره تلك السائحات المسنات والعكس صحيح. غير أنه شتان بين هذا الكسب وذاك وبين هذه الخسارة وتلك.

فجنسانية هؤلاء الشباب هي حب بدون حب، إذ لا يعايشون أثناءها ذواتهم كفاعلين إيجابيين وكمفعلين أحرار لطاقتهم الحيوية، فهم مغتربون عن هذه الطاقات لأن هدفهم هو بيعها بأعلى ثمن ممكن، ومن ثمة فإن إحساسهم بذواتهم أثناء هذه الجنسانية لا ينبع من نشاطهم كعشاق وكمتلذّذين وإنما ينبع من فعلهم التبرّحي.

[1]- Daniel Cohn- Bedit: Nous l'avons tant aimée la Révolution .Barrault ED, 1986.

ورد في: دافيد لو بروتون: أنثروبولوجيا الجسد والحدائق... مصدر مذكور سابقاً، ص 158.

لقد أصبحت أجسادهم وحيوياتهم رأس مال يجب عليهم استثماره بنجاح من أجل أن يحققوا كسبا مادياً، وهذا ما ينحدر بهم إلى مستوى الشيء البضاعة، ويغربهم عن طبيعتهم الإنسانية، ومقابل هذا الاغتراب يكسبون من هذه الجنسية الزائفة المال وحتى الثراء... أما السائحات المسنات فإنّ الجنس بالنسبة إليهن ليس حالة عاطفية انفعالية منشودة لذاتها، وإنما هو فاعلية حماية ضد النسيان والإقصاء وما يولده في نفوسهن من قلق اضطهادي كارب، فهو يتيح لهن امكانية تفعيل الشعور وإحياء الحس وإنعاش الجسد بعيداً عن مجتمع يلغي الشيوخ لحساب عنصرية شابة، ومقابل ذلك ينفقن أموالهن.

فهل، بحساب الربح والخسارة، يستوي من ينفق ماله لشراء حيوية الآخر وشبابه مع من يبيعهما؟ بمعنى هل يستوي من يلغي ذاته في زمن انطلاقها نحو الإثبات مع من يثبت ذاته في زمن انطلاقها نحو الإلغاء؟

لا يستويان... غير أنه التبادل اللامتكافئ ضمن المنطق الخضوعي الاستتباعي للسياحة الغربية في البلدان العربية.

(4) الدلالة الثالثة: العيش الرغيد بدون عمل وبدون شقاء.

إنّ الآلهة تعيش بدون شقاء حيث أعفتها الطبيعة الكريمة من العمل

(l'Âge d'Or... les hommes vivent sans souffrir... où la nature généreuse les dispense du travail.)

هذه البيت الشعري لهيزيود (Hésiode)^[1]، والذي يعكس الوعي الأسطوري الإغريقي، يحيل إلى نمط عيش الآلهة، والحقيقة أنه حتى على المستوى الزمني التاريخي فإن الأرستقراطية تمثلت بالآلهة فهي لم تعمل إلا العمل الفكري الناعم واستمتعت بالراحة على قاعدة أفلاطون الشهيرة: «لا يدخلنّ علينا من لم يكن مهندساً».

أما الطبقة البورجوازية فقد كانت مسكونة «بعقدة الأرستقراطية» وبهاجس اكتساب الوجاهة التي كانت تحظى بها هذه الطبقة، ولقد توخت، كمدخل لاكتساب هذه الوجاهة الإمعان في الاستمتاع بالراحة والترفيه^[2].

[1]- Hésiode: Les Travaux et les Jours. Éditions Mille et Une Nuits, 1re éd. 2006.

[2]- حول هذه الأطروحة أنظر: T. Veblen: Théorie de la classe de loisir. Paris Gallimard 1970.

بالنسبة للطبقات الشعبية المستهدفة بهذه التسميات الإشهارية للنزل، فإن أسماء الآلهة تعكس، في ما تعكس، ممارسات الآلهة البذخية اللعبية التنعمية الاستمتاعية الترفهية الرغيدة التي يمكن أن يمارسها العامل الغربي أثناء العطلة السياحية، كما تعكس مجمل أجواء السيادة والنفوذ والحظوة والقدرة الاستملاكية التي يمكن أن ينغمر بها... وهي بطبيعة الحال ليست ممارسات هذا العامل في حياته اليومية الموصومة بالكدح والكفاف، ولا هي أجواء معيشه اليومي الموصوم بالخضوع الاقتصادي لأرباب العمل.

إنّ هذه الممارسات التي تعكس الحظوة والجاه، وهذه الأجواء التي تعكس السيادة والنفوذ، تندرج ضمن إطار ما نسميه بالتماهي الطبقي، أي أنّ يتمثلن العامل بالمنمط السلوكية للطبقة البورجوازية فيستهلك علاماتها ورموزها التي هي ليست علاماته ولا رموزه، ويعيش نمط عيشها الذي هو ليس نمط عيشه. إنه نوع من الانفصال الظرفي والمصطنع عن الطبقة الأصلية والارتباط الظرفي والمصطنع أيضا بالطبقة العلوية، ومن ثمّة التنعم الإيهامي للذات بوجاهتها الاجتماعية (Prestige social) وبقدرتها الإستملاكية... إنّ نوع من التحايل على الواقع الضنك بواقع متخيّل رغيد. وهذا عينه فعل الأسطورة.

إنّ هذا التماهي الطبقي يعكس حالة من توكيد الذات وتعزيزها إلا أنه ليس صلبا لأنه توازن وهمي يفنّده الواقع الصريح والفصيح... إنه نوع من التعويض الظرفي لواقع الدونية والتغطية المؤقتة عن العجز... نحن هنا بإزاء واقع زائف يحزر الرغبة ويسمح بانطلاقها، وهذا هو الفعل النفسي للأسطورة، حيث يعمل هذا الفعل على احتواء المكبوت وتفريغه من محتواه الثوري وحتى النقدي وي طرح إمكانية الاستجابة له وإشباعه الكامل من خلال عالم الخدمات المختلفة ومنها السياحة^[1]... فتصبح العطلة السياحية بهذا المعنى، في نزل بأسماء الآلهة، آلية ذات نتائج نفسية هامة للتكيف مع الواقع ولخفض التوتر وتقليص الغبن وخفض الوعي بالانجراف في مجتمع لا يعبأ إلا بأصحاب القوة والمكانة^[2].

لقد كتب هانس إنتزنسبيرغر (Hans ENZENSBERGER) في هذا الصدد أن الطبقة العمالية المستغلة كان مطلبها الأساسي هو الثورة على الاستغلال ونيل الحرية... غير أن الرأسمالية حرقت

[1]- يذهب هاربرت ماركوز إلى أن صناعات اللذة في المجتمع الصناعي تقوم بترشيد أحلام الإنسان الجنسية واستيعابها داخل إطار النظام القائم، فهي تطلق الرغبة الجنسية من عقالها ولكنها تفرّغ مبدأ اللذة من محتواه الثوري وتحتويه تماما، إذ تطرح إمكانية الإشباع الكامل من خلال عالم الخدمات المختلفة مثل السياحة والنوادي الليلية وأحلام الإباحية. أي أن كل شيء يتم تدجينه، وضمن ذلك الرغبة الجنسية نفسها. أنظر: هاربرت ماركوز، الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة جورج طرابيشي، دار الآداب بيروت، الطبعة الثالثة، 1988.

[2]- علي زيعور: اللاوعي الثقافي ولغة الجسد والتواصل غير اللفظي في الذات العربية، دار الطليعة. بيروت، 1991، ص 48

هذه المطالب وميعتها، فكانت السياحة بمثابة الحل السيئ للمطلب الجيد حيث تمّ التغيير الظرفي لظروف العيش بالانتقال الظرفي إلى مجتمع آخر، وذلك عوضاً عن التغيير البنيوي لظروف العيش بالتغيير البنيوي لمجتمع الأصل^[1].

إنّ الرأسمالية حولت الحرية إلى صورة منشودة في أقاليم الوعي أيّ في الحلم، وفي أقاليم المكان أيّ في مجتمعات الاستقبال السياحي، ومنها المجتمعات العربية، التي تمّ خفض كل مقوماتها إلى مجرد بيئة للتصعيد والتنفيس: في أقاليم تاريخها أيّ في معالمها التاريخية وفي آثارها، وفي أقاليم ثقافتها أيّ في فنونها ومختلف تعبيراتها الشعبية... لقد حُقِّضت هذه المجتمعات إلى محض بيئة مناسبة للتداعي الحر لحرّيات السائح وفسح المجال الكامل لها وحتى تعديل القيم والمفاهيم المحلية وتغييرها لتتجاوب معها وتتناغم مع انتظاراتها وتستجيب لمتطلباتها، من هنا نتحدث عن تسييح مجتمعات الاستقبال، أيّ تغريبها عن مقوماتها، وإخضاع مختلف هذه المقومات الثقافية والقيمية والاجتماعية لحرّيات السياح وانتظاراتهم المطلقة، وعوض أن يبحث هذا السائح كإنسان مقهور ومستغلّ ومستلب عن حرّيته الجماعية في الثورة كفعل جماعي، يبحث عنها في السياحة وفي الحلم وفي الوهم كفعل فردي، فيعيش الحرية، ظرفياً، وأهما في بلد السياحة ما كان يجب أن يعيشه، بنويًا، حقيقة في بلده الأصل...

(5) الدلالة الرابعة: نفي الموت والاستمتاع بالخلود.

إنّ الآلهة لا تموت، إنها خالدة وهي تعيش في رفاها، هذا هو الفهم الحاصل في الوعي الأسطوري العام للثقافة الغربية. وحينما نستعمل أسماء هذه الآلهة بكثافة في تسمية النزل فإننا بذلك نكتف بصور الوجود والحياة ونُبعد أفكار الموت والعدم.

إنّ هذه التسميات موجهة إلى مستهلك ينتمي إلى ثقافة غربية مادية ترفض فكرة الموت لما يثيره من رهبة ورعب وتعمل على إخضاعه وكبت فكرته وإقصائه من الحضور في التفكير... وذلك بتكثيف صور الحياة وإمكانيات العيش^[2].

كما تعدّ هذه الأسماء بالرفاه الزائد والقوة الخارقة والنشاط الجامح... وهي جميعها ممارسات

[1]- H. M. Enzensberger, Une théorie du tourisme, in Culture ou mise en condition?, Paris, Julliard, 1965, p. 161- 162.

[2]- برهان غليون: مجتمع النخبة. دار البراق للنشر، الطبعة الثانية، 1989. ص 88.

هدفها الاستمتاع الأقصى بالحياة والتنعم الأفضل بها وإشباع الحاجات المادية الغرائزية إلى ما لانهاية... كما تدعو إلى الاستسلام الكامل للذات المادية والإنصات الإشباعي الدقيق لشهواتها ورغباتها وتهويماتها وشواردها وذلك بغرض نفي الموت وتعميق الشعور بالحياة والكينونة^[1] وإعادة إنتاج الأمن الوجودي وتبديد القلق العائم المرتبط بعدم الثبات والنقصان...

إنّ الرسالة التي ترسلها هذه الأسماء هو أنّ هذه الحياة ليست مشفوعة بالضرورة بوجود آخر بعدها، وإنما هي الرحلة الوجودية الكاملة في مبتدأها ومنتهاها، وأن الجنة، بما تعنيه من نعيم مطلق، هي ههنا في القصور الفارحة المترفة، مقر عيش هذه الآلهة، وفي نمط وجودها القائم على البذخ والمتعة والرفاه والراحة وعدم التعب، بعيدا عن لعنة الكدح والشقاء في تحصيل العيش والمقولة الدينية المؤنّبة: «ستحصل على خبزك بعرق جبينك» (tu gagnes ton pain à la sueur de ton front)^[2].

إن الجنة، مقر خلود الآلهة، هي عينها هذه النزول وهي في متناول من ينزل بها. وإن الآلهة مطلقة الحرية، وهي غير محكومة بالمحظورات والمحرمات، ويلتقي ذلك مع وعي الإنسان الحديث الذي يبحث باستمرار عن التحقق المادي الدائم وعن الإشباع وعن اللذة الكاملة. إن هذه المعاني والدلالات الثقافية المتصلة بالمسألة الروحية، لا شكّ أنها تخدم البعد الاستهلاكي السياحي كونها تنزّل في سياق إشهاري. ولكنّ هذا السياق الإشهاري نفسه ينزّل هو الآخر في سياق أوسع وهو السياق الثقافي لدول الاستقبال. وهنا يفتح باب آخرٌ للتحليل:

إنّ المجتمعات العربية السياحية التي تُروّج فيها مثل هذه التصورات ذات المعاني والرسائل الثقافية المادية الزمنية هي مجتمعات ذات ثقافة روحية دينية تنظر إلى مسائل الحياة والموت والوجود والعدم نظرة مغايرة تماما. فالحياة في هذه الثقافة ليست هي رحلة الوجود برمتها وإنما هي مجرد فاصل وجودي قصير، إنها مبتدئ الرحلة فحسبٌ تليها مرحلة الوجود البرزخي الذي هو الموت، تليه مرحلة الوجود الأخرى، أي أنّ العدم في هذه الثقافة غير موجود.

إنّ معاني هذه التصورات الإشهارية ودلالاتها تؤسس قاعدة لعدم الاعتراف بالاختلاف الثقافي.

[1]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[2]- Calvin, Institution de la religion chrétienne. Cit in Pierre Bouvier, Le travail, PUF, Paris, 1991, p 16.

فالقيم الروحية الدينية للمجتمعات العربية تُعَيَّب لصالح القيم المادية الزمنية للمجتمعات الغربية الرأسمالية. والثقافة الروحية تُمَحَى لصالح الثقافة المادية وفي ذلك تخطُّ لمفاهيم الاختلاف الثقافي والخصوصيات الحضارية والحق في الاختلاف الاعتراف بالغيرية...^[1].

خاتمة

هذه الومضات الأربع تجيب عن الاستفهام الذي طرحه عالم الأنثروبولوجيا والاجتماع دين ماكنيل من أنه يجب علينا أن نفهم ما يميز إنسان الحداثة لنستطيع تحديد دوافعه لممارسة السياحة. إنَّ الإنسان الحديث يعاني من الاغتراب والتشتت والسطحية، وبالتالي فإنَّ السياحة تمثل بالنسبة له ظرفاً مصطنعاً يخفض فيه التوتر ويمارس فيه المتعة الخالصة ويعيد فيه إنتاج المعنى ويفتح فيه إمكانيات جديدة للفعل في كل إمكاناته النزوية والرغائية والغرائبية والرغوبية وحتى الشذوذية... إنَّ السياحة هنا تنتزع الإنسان من إخفاقات الحداثة وفشلها لتكون بمثابة عودة إلى الخلف، إلى المجتمعات البدائية البسيطة التي لا تزال تعيش على حالتها الطبيعية والتي يمكن فيها ممارسة المتعة الخالصة في بعدها الأكثر حرية.

إنَّ الغرب سيمارس هذه الحرية الاستمتاعية السائبة في المجتمعات النامية ومنها المجتمعات العربية التي انخفضت قيمتها إلى مستوى المادة الاجتماعية البدائية المستقبلية للسياح الغربيين بخضوع يساعدهم على التحلل الحر من الإكراهات وتصعيد الأزمات وتعويض الإخفاقات وتصريف الشذوذ والنزوات...

[1]- عادل الوشّاني: أساسات علمية للظاهرة السياحية، مصدر مذكور سابقاً، ص 61-62.